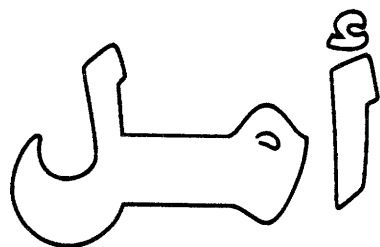


بدأت جحافل الظلام تغزو القرية . . . سلمى مركوبة . هجم عليها
وصرعها أرضاً . دخل جسدها واستقر فيه . قرينتا ملعونة . ستمر هذه
البقعة . لم يبق منها شيء . بعد قليل ستأتي الغربان وتستوطن هذه البيوت .
أشعلت المشاعل ووقف الجمع في باب بيت سلمى . . . أين سلمى ؟
إرتعدت أوصال الأب . لا يدري أي طريق يسلك . الناس تريد قتل ابنته . أجل
إنها مركوبة ، ولكنها ابنته . هو أيضاً فكر في القتل ولكن . . أنا أبوها أقتلها
متى أشاء ، وما شأن هذا الجمع ، ما شأن الناس بابتتي ؟
- إذهب وأحضر الإمام الآن . . . صرخ في وجه ابنه . هرول الإمام متوجساً
بعد سماعه أن الأحداث تأخذ مجرى لم يتوقعه ، مع كل ما يملك من آفاق
واسعة .
- إتقوا الله يا جماعة الخير لا تسرعوا . . . هذه الأزمة التي تمر بها قرينتا
الغالية حلها سيتم على يدي . كما تعلمون فإن خبرتي في هذا المجال لا مثيل
لها . كلكم تعرفونها . . . أعطوني الفرصة لمعالجة الوضع . . .
- إنها شيطان ويجب قتلها ، وأنت تعرف هذا جيداً يجب إحراقها يجب . . .
يجب . . . صاح الجمع .
- الرجاء أن تهدأوا . . . سأدخل لأفحص الوضع وبعدها سأخرج إليكم
ونتباحث .
إنكمشت سلمى عندما رأت باب الغرفة يفتح ويدخل منه رجل غريب عن أهل
دارها . إن وجهه مألوف لها " . . إنه الإمام . . . نعم إنه الإمام بعينه .
سينقذني الإمام . إنه تقي وورع . وهو يعرفني ، إنني أراه كل صباح . أمي قالت
إن الإمام قادر على كل شيء ، لأنه يصلي ويعبد الله . لعله يساعدني ويترد
الصوت الملعون . . . ولكن أين أبي ؟ لماذا يدخل وحده ؟ "
- سلمى . . . أنا الإمام يا سلمى . قال وهو يتقدم باتجاهها .
- لا تخافي . . . إنهارت كل الحواجز ووسائل الدفاع . بدى وكأنه هو

المركوب . سأمتع نفسي . . . سأشعلها ناراً ومن بعدي الطوفان .
بدأت تصرخ ، تصيح ، تقاوم ، تضربه بكل ما أوتيت من قوة ، ولكن هيهات
. . . إنه ثور . . . إرتخى جسده فقام مسرعاً لم يتأخر عند أبيها خرج إلى
الجمع .
- يجب حرق هذا الشيطان .



في ظل شجرة التين جلس " أبو محمد " يحتمي قهوة صباح

تموزي .

على مرأى من عينيه كانت " أم محمد " تغسل ثيابه ، تسحب الثوب من الماء والصابون ، تفركه ، تغطسه في الماء وتسحبه ثانية . عملية ميكانيكية لتنظيف الثياب . الدجاج يقترب ليشرب ماء الغسيل فتنهره " أم محمد " يتعدد ويقترب ثانية . " أبو محمد " يراقبها كأنه مشاهد من عالم آخر . أفكاره سحبته بعيداً هذا الصباح . طافت في أرجاء القرية .

- دعي الثياب والغسيل وتعالني . قال مخاطباً " أم محمد " .

استمرت بحركتها الميكانيكية دون أن تلتفت إليه . ولكنها ململت بعض الجمل ، دون أن تهتم بأن يسمعها .

- ألم تسمعي ، إتركي هذه الثياب الوسخة وتعالني .

- سمعتك ، سمعتك ولكن يجب إنهاء هذا الغسيل . . . ماذا ستلبس أنت

وخلفك؟ أجابت متضايقه من إلحاحه .

- لا حول ولا قوة الا بالله ، بنات حواء . . . يوجد لك كل اليوم لتغسلي ثيابنا . . . لا أملك الوقت كله للجلوس ومحادثتك . . .

- أف . . . ماذا تريد مني؟ هل تدبر مكيدة أخرى لتفسد بها . . . مسكت لسانها لثلاثا يناطحها بكلماته اللاذعة .

- ليست بمكيدة ، أدبر مخرج ، يا بنت الناس يجب أن نفرح ، منذ مدة ولم أفرح كما يجب . . .

- يجب أن نفرح . . . ومن أنا التي أفرحك . . . قالت بلهجة سخرية وحسرة على أيام خوال .

- آه يا بنت الشيطان . . . إستغفري ربك . يا امرأة ، أريد أن أفرح بابني . . .
إبني سيعود وأريد أن أراه متزوجاً . . .
انتظر حتى يصل ونسمع رأيه .

- ما هذا الرأي السديد؟ أكيد ورثتي هذه الجمل عن أبيك الملعون اسمه . . .
قال متهكماً .

- إياك أن تلعن أبي ثانية . . . دعه يرقد في تربته بهدوء . . . أنا ورثت حكمة ،
وأنت ورثت سم أفعى يجري في عروقك . . . وتلسع به خلق الله . . .
إكفهرت " أم محمد " .

قام مع فنجان القهوة والسيجارة واتجه الى زوجته .

- لا تقترب مني . . . إبتعد عني . . .

- هدئي من روعك . . . يا بنت . . . دعيني من هذا الجدال الذي لا جدوى
منه . . . من من بنات القرية ثلاثم محمد . فكري معي ، بنت عيسى الأخضر ،
بنت صغيرة ولكن جدعها مفتول . لقد رأيتها قبل بضعة أيام في الحقل ، لا
شك أنها أجمل بنت في القرية ، ولكن ذرية أمها بنات . . . والله أعلم أي
خلل في البنت . . . من جهة ثانية أكيد سترث خمسة وأربعين دونماً في شمال

القرية أو أكثر . على الأقل خمسة وأربعين دونماً . لقد شغلت عقلي في حساب
الملذات ، أبوها سيموت خلال سنة ، على الأرجح ، لأنه يعاني من عدة . . .
- يارجل دعك من هذه الأفكار . . . إنتظر حتى يصل محمد . لكل شأن
أوان .

- قلتُ لك أن الاوان . . . قال بلهجة حازمة .

- كما ترى . . . من أنا لأقول لك كلاً . . .

ركل طشت الغسيل فقلبه وسال الماء والصابون واتسخت الثياب ورمى فنجان
قهوته على الارض .

- ملعون أبو النساء والذي صنعهن . . . وخرج من ساحة البيت متجهاً الى
ديوان القرية . " أم محمد " لم تنبس بحرف . لقد كانت راضية عن نفسها لأنها
أغاظته . " هكذا سيتعلم ألا يلعن وألا يسب متى يشاء وكيفما شاء . " قالت
مخاطبة نفسها . وستزوج محمد . " ولكن أنا التي ستختار العروس وليس
العجوز الفاسد . . . هل يفهم في جنس النساء هذا الفحل الجاف " . أخذت
تلملم الثياب الملتخة بالطين ، وضعتها في طشت الغسيل واتجهت إلى الخنفية
في طرف ساحة البيت ، لتبدأ الغسيل من جديد . جالت في خاطرها وجوه
مرشحات القرية الملائمات لمحمد . هذه طويلة ، تلك أمها تحب النميمة . بنت
فارس جميلة ، لكنها لا تملك شيئاً يجدي . بنت فاطمة جميلة ولكن أهلها
لاجنون في القرية . كيف ستناسب لاجئين ؟ " آه يا محمد يا ابني ماهي
أحوالك هذه الأيام ؟ يا ربي ، ماعملت لك بنات الأجانب ؟ لكن معك دم
عربي . أكيد أكيد ستتزوج واحدة من بناتنا . أنا ربيتك وأعرفك أكثر من كل
الناس . وحتى أكثر من أبيك المتعجرف . من التي أسقتك وأطعمتك
وغسلتك . قل لي من ؟ أنا . هذا حقي أن أزوجك أيضاً ، هذه سنة الحياة . . .
يا ترى متى ستأتي . . . إني أموت شوقاً لضمك . . . "

إنتبهت إلى أن المياه عبأت طشت الغسيل وطفحت وبدأت بالإنسكاب خارجه

فأغلقت حنفية الماء وانحنت لترمم الطشت وتعود إلى مكانها لتعود ، لتستمر في الغسيل . ما زالت تبحث في ملفات الذاكرة عن عروق الجمال والغنى والأحساب والأنساب ، حسب تركيبة معادلة دقيقة ركبته بها السنون والناس . رفعت الطشت وأخذت تبحث عن الصابون . . . ألقّت نظرة بجانب الحنفية . فلم تجده فأخذت تدور بعينيها باحثة بنظرة ثاقبة كأنها تحرث أرض الدار . رآته في مكان جلستها الأولى . فتحرّكت متجهة إلى مكانها الأول . وبدأت عمليتها الميكانيكية ثانية . تسحب وتفرك وتغطس في الماء وتسحب ثانية .

- يا سعاد . . . سعاد . صاحت منادية أبتها .

- سعاد . . .

- حاضر . . . ماذا يجري في هذا البيت ؟ لماذا تصرخين هكذا ؟ خاطبتها سعاد بين الخوف والغضب .

- تعالي . . . أريد أن أسألك بخصوص محمد .

- ألم تسأليني ألف مرة منذ وصول رسالته الأخيرة ؟

- بلى ولكن تعالي . . . قالت الأم بلهجة حازمة . هرولت سعاد باتجاه أمها وبين يديها رسالة محمد .

- إسمعي : " سأعود إلى الوطن خلال شهر ، لا أستطيع تحديد الوقت لأنني مشغول . . . " هل أنت راضية ؟

- كلا لست راضية . . . لقد مرّ شهران وأنت تقولين لي بأنه سيعود خلال شهر . . . سيعود خلال شهر . . .

- أنا لا أقول لك . . . أنا أقرأ ما كتبه محمد . قالت سعاد مبعدة التهمة عنها .

- يا خوفني أن يكون حدث له سوء أو أصابه مكروه . . . بلاد الأجانب لا

تطمئن . . . ساعديني يا سعاد ماذا سنعمل ؟ توصلت إلى سعاد كأنها الأمل .

- لا أدري يا أماه . . . لقد قلت لك أنه يمكننا أن نتصل به بالهاتفون . لكن أبي لا

يريد . . . لأنه لا يوجد في قرينتنا تلفون وهذا سيجبره على النزول إلى المدينة
ودفع مبالغ باهظة . . . ولكن هذا الإدعاء غير مقبول ، لأنه مليء بالدسائس
والمكائد التي تحدثيني عنها بدلاً من أن يهتم بمصير ابنه . . .
- كفي عن هذا الهزار يا بنت ، أبوك تاج رأسك . لا تتكلمي عنه بهذه اللهجة .
" أم محمد " ترمي ابنتها بكل بأسها وغضبها .

- يجب عليك إحترامه حتى لو قتلك يا قليلة الأدب ، أغربي من وجهي . . .
يا للوقاحة وقله الحياء . . . أنا لم أرفع عيني في وجه أبي طوال حياته . . .
حتى أنني لم أكلمه بشكل مباشر إلا عند إحتضاره . هل تفهمين ؟ إذهبي
وأكملي أعمال البيت ، هيا تحركي . . . أخرست الوعظة سعاد فلم تنبس بشفة
مطأطئة رأسها أرضاً دخلت البيت مصعوقة من ثورة أمها . إنها تعرف أن أمها
تكره أبيها وتمتته فما هذا الدفاع المستميت عنه ؟

- وما ذنبي أنا ؟ إنني أقول الحقيقة . طوال حياتي وهي تقول لي " يا سعاد قولني
الحقيقة ، و فقط الحقيقة " ، وعندما أقول الحقيقة تهب في وجهي كالنار تريد
أن تكويني ، وما زالت تحسبني بنت صغيرة ، إنني كبيرة ، وجسمي يكبر
ويتكور ، حتى أنه يأتيني ما يأتيها . لن أدعها تهينني هكذا . . . ولكن لماذا تدافع
عن أبي ؟ إن أبي يتدمر طوال الوقت لأنه دفع المال لتعليم ودراسة محمد وكان
دفع المال يقصر من حياته ، لو كنت معي يا محمد لأكيد دافعت عني ، يا ترى
أين أنت ؟ كتبت أنك ستعود خلال شهر ، ومضى شهر آخر ولم نسمع منك
شيئاً . لا بد أن أفتع أبي بالإتصال به . ولكن كيف ؟

بدأت سعاد بغسل الأطباق وتنظيف المطبخ ، قبل أن تأتي أمها وتنهال عليها
باللوم وبعض المسبات الدافئة . ثم بدأت تقطع البصل ووضعته في طنجرة بعد
أن سكبت بعض الزيت وأخذت تحركه في حركات دائرية .
بيت " أبو محمد " يتكون من ثلاث غرف ، غرفتان للنوم وغرفة للحياة . الباب
الخارجي هو مدخل غرفة الحياة . زاوية الأكل في هذه الغرفة تقع في الجانب

الأمين للغرفة ، حيث تستعمل كمطبخ . أيضاً هذا الإستعمال جاء بسبب وجود حنفية ماء في هذا الجانب من الغرفة . في الطرف المقابل زاوية إستقبال الضيوف والزوار في الأفراح والأتراح وحتى في الأيام العادية . كانت صورة " أبو محمد " الشاب في اوائل عقده الثاني . يبدو عليه أنه على استعداد لإحتلال الدنيا من خلال وقفة معينة امام كاميرا التصوير . " أبو محمد " كان يتباهى دائماً بهذه الصورة . اذ كان يقول لزوجته " يقف امامك قائد وزعيم القرية . لقد كنت زعيماً منذ كنت في رحم أمي . إذ أجبرتها على إنزالي في الشهر السابع .

أما " أم محمد " فقد كانت الصورة ومكانها معبداً لطقوس السب والنعن واللوم . فعندما لا تجرؤ على مواجهة زوجها ، تنتظر خروجه من البيت ، لتقف أمام الصورة وتبدأ بإخراج شتى ألوان السب والشائم ثم تبدأ فقرة اللوم . " لماذا تعذبني ؟ هل ينقصك شيء حتى لو نقصك فيوجد بين فكيك لسان يتكلم ليطلب وليس للسب والشتيمة " . . . تستمر طوال ساعات على هذا المنوال . كلما مرت أمام الصورة تقف لتقول ما في صدرها ثم تستمر في روتينها المبرمج . ثم تمر من غرفة الحياة لتقف في معبد الصورة ثانية وثالثة ورابعة وحتى خامسة في نفس اليوم . بجانب زاوية الأكل كان باب غرفة البنات حيث كانت " أم محمد " والبنات ينمن . وقد تزوجت كل البنات ما عدا سعاد . فبقيت الغرفة في خدمة سعاد وأمها . على يسار الغرفة كانت الغرفة الثالثة ، غرفة الشبان . حيث ينام " أبو محمد " ومحمد حينما كان في البيت . ولكن أمه لا تزال تفرش له مكانا للنوم ، مع أنه غير موجود ، منذ سنين . في صدر الغرفة عُلِقَ سيفٌ فضي اللون ، جاوز الذراع طولاً ، مرصعاً بخرزات زرقاء وحمراء من البلاستيك الرخيص ، على غمده حُفرت أشكال دائرية لا أول لها ولا آخر . ولكنها أعطته صفة الهيبة والوقار ، كأن طارق بن زياد صاحبه . والسيف هو مفتاح لحل لغز فتح الاندلس ، وبعون الله مفتاح لمعضلات " أبو محمد

"الذي لا يفتأ يناجي سيفه صباحاً ومساءً. في جانبه الأيمن خطت " العزة
"وفي الأيسر" لله" بلون أخضر فاقع حتى لتحسبه دم حيوان، بعد عشرين
عاماً من الذبح.

توسطت شمس البلاد في سماء زرقاء ونقية، كأنها تدعو سكان الارض لطقس
من الطهارة. " أم محمد " وسعاد يركبن وجبة غذاء غنية ودسمة بالزيت
والخضار ولحم ذبيحة طازجة

- ناوليني حبتي ليمون من الشجرة .
- حاضر ...

خرجت سعاد لتحضر الليمون .

- سعاد يا سعاد ... إقطعي فلفلاً أحمر أيضاً.

- قرري ماذا تريدين؟ فلفل أم ليمون؟

- فلفل وليمون. ألا تسمعي ما أقوله لك؟ فلفل وليمون.

أخذت سعاد تبحث عن ليمونة طازجة صفراء كبيرة مليئة بالعصير الذي يشهي

ويساعد على أكل طعام الظهيرة . لم تبق حتى ليمونة واحدة على أطراف

الشجرة ، كلها عالية في قمة الشجرة . إنحنت سعاد ودخلت من تحت

الأغصان المنخفضة وأخذت تتسلق الشجرة . كانت حركاتها تدلّ على مهارة

وخفة كأنها مختصة في تسلق أشجار الليمون ، إذ خلعت حذاءها وأخذت

تعانق أغصان الشجرة الواحد تلو الآخر ، كأنها ترقص مع عشيقها في ليلة

حبّ صباء ، تعرف خلجات الحبيب وأهواءه حق المعرفة .

قطفت سعاد حبة ليمونة . ونزلت من على الشجرة بمهارة وقصدت شجيرات

الفلفل . قطفت بعض الفلفل وتوجهت الى الدار .

- يا ترى أين أنت يا محمد؟ ماذا تعمل؟ هل أنت سعيد؟ أم أنك حزين؟

سمعت أمها من وراء الباب ، تناجي إبنها . أخذها شعور عاصف بالغضب الثائر

حتى الحقد على أمها . إذا حقاً تريده أن يأتي ، فلماذا لا تعمل على إحضاره؟

لم تصر . لم تحاول حتى إقناع أبي . كلاهما يحلم أن يعود محمد يوماً . لا
لأنهم يريدونه ويطمحون لرؤيته ، بل ليحققوا رغباتهم . هذا يريد أن يصنع منه
رجلاً يفتخر به في ديوان القرية . ثم أنه طُعم جيد لكي يربح بعض الدونمات
من خلاله . ولكن محمد لن يعود لأنه أكيد يشعر أنهم يريدونه ، لا لنفسه ، إنما
لأنفسهم

- أراك تتلكتين ، أذهابة الى دخلتك

- تحركي !

- لا تصرخي علي لست بنت صغيرة ولست خادمتك

- آه ألا يكفي أبوك ألا يكفي غياب محمد بدل من أن تساعديني

- محمد لن يأتي لن يأتي لأنكم لا تريدونه

- ما هذا الذي تهذرين به أنا لا أريده ؟

- يأتي ؟ أنا

- بلى ، لأنك لم تحركي قيد أنملة لإحضاره . حتى أنك لا تعرفين أين يسكن !

- أنا أحلم باليوم

- أحلام أحلام إبعثي له نقوداً كي يرجع إبعثي له رسالة

- أبوك هو الذي يجب أن يبعث

- أبي أبي أين هو هذا الفارس ؟ في الديوان ؟ يقص قصته مع الثور ؟ لا

يزال يحدث الناس كيف صرع الثور ؟ محمد لن يأتي إنك تحلمين .

الفارس سيقص قصة محمد

- إخرسي يا غراب البين

- لن أسكت ولن أخرس سأقول الحقيقة ورمت الليمون والفلفل .

وإذ هي خارجة إصطدمت بأبيها . من هول المفاجأة سقطت أرضاً . إلتقطت

أنفاسها وحاولت النهوض ولكنها رأت أباها يسبح في بحر من الدموع

خرج قلبها من صدرها من شدة ضرباته .

- البقية في حياتكم محمد أعطاكم عمره .